العلوم النقلية بين منهجية القرآن المعرفية وإشكاليات عصر التدوين

طه جابر العلواني *

ثمة نوعان من المعرفة لكل منهما منهجيته ووسائله وأدواته ومصادره:

أولهما المعرفة الدينية، وهي معرفة بدأت بتعليم الله لآدم الأسماء، وتتابعت النبوات والرّسالات في تكميل جوانبها حتى استوت على سوقها منهجية معرفية كاملة في القرآن الكريم، قابلة لاستيعاب متطلبات الإنسان المعرفية في سائر عصوره وأزمنته وعلى اختلاف بيئاته وأنساقه الحضارية. وذلك إذا قرئ القرآن العظيم بتلك المنهجية المعرفية القائمة على الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون.

أما النوع الثاني، فهي المعرفة البشرية الوضعية التي توصل الإنسان إليها دون أن يعتمد على الوحي أو يربطها بمنهاجيته، أو يلاحظ فيها الحضور الإلهي في المعرفة والطبيعة والإنسان. فهي تفترض أن الحياة تعتمد على طرفين لا ثالث لهما: الكون أو الطبيعة والإنسان، وأي بعد آخر جاء به الدين لا تلتفت إليه. والجدير بالملاحظة أن

---

* حصل على الدكتوراة في أصول الفقه من جامعة الأزهر (١٩٧٣)، وعمل أستاذاً للفقه وأصوله في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. شارك بتأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن (١٩٨١)، وهو الرئيس الحالي للمعهد، وعضو مجمع الفقه الإسلامي بجدة، ورئيس المجلس الفقهي لأميركة الشمالية. حقق المحصول في علم أصول الفقه للإمام الرازي بستة مجلدات ونشرته جامعة الإمام محمد بن سعود. له عدة مؤلفات وأبحاث أخرى منها: الاجتهاد والتقليد في الإسلام، أدب الاختلاف في الإسلام، أصول الفقه الإسلامي، إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات.

هذه المعرفة الوضعية التي حصرت العلاقة الكونية بين الإنسان والطبيعة، ونفت البعد الغيبي أو تجاهلته أصبحت بعد نهضة أوروبة وثوراتها المتتابعة: التنويرية، ثم العقلية، ثم العلمية، هي المعرفة المهيمنة على العالم كله، ومنه العالم العربي والإسلامي.

هناك نماذج كثيرة تبين كيف تأثر ملايين المسلمين بهذه المعرفة الوضعية ومعطياتها في الفكر والتصور والاعتقاد، إضافة إلى نظم الحياة وعلاقاتها. ولا حاجة إلى إيراد الأمثلة على ذلك، فإن هذا أمر لا يخفى على كل ذي بصيرة في الأمور. ومما لا شك فيه أن هذا الوضع كان له آثاره البالغة في تهميش أو تجاهل المعرفة الدينية في نظريتها ومصادرها، والأفهام البشرية لها وغير ذلك.

نستطيع أن نعالج هذه المشكلة ونقف على أبعادها إذا فرّقنا من البداية بين مصادر التنظير: الكتاب والسنة، وبين ما يسمى بالتراث. ومن الواضح أن فكر المسلمين وتراثهم المتمثل في علوم النقل -سواء أكانت علوم وسائل أم علوم مقاصد- لم يستطع أن يواجه هذا التحدي وأن يحتويه ويستوعبه في وقت كان ذلك فيه ممكناً، لو تم الرجوع إلى القرآن العظيم بمنهجية ومعرفة وفهم متجدد وإدراك كامل لخصائصه وقدراته المتنوعة، وفهم دقيق لمنهج رسول الله ﷺ المتمثل لمجمل ما أعطاه في حياته منذ لحظة نزول الوحي عليه حتى لحظة التحاقه بالرفيق الأعلى.

لكن العقل المسلم تجمد وتبنى وقلّد وكيّف نفسه وفقاً للمعارف النقلية التي دونت في عصر التدوين. وكان ذلك التبني قد أضرّ بالعقل المسلم وبعلاقته بمصدري تكوينه: القرآن العظيم، والسنة النبوية. فالصورة التي حاولت المعرفية الوضعية أن ترسمها في أذهان المسلمين عن الإسلام من خلال تراثهم هي صورة لا يرضاها أي مسلم. وقد هدفت هذه المعرفة من ذلك أن تجعل من تلك الصورة جزءاً من وسائلها في تحقيق الاستلاب النهائي للمسلمين، والقضاء على خصوصياتهم.

ينبغي الأخذ بالاعتبار وجوه النقد التي وجهت لتراث عصر التدوين، وللعلوم النقلية في مختلف العصور ومن علماء في أزمان مختلفة، بدءاً بالقرن الخامس الهجري حتى الآن. وذلك، لكي نربط بإحكام بين عمليات النقد الموجهة للتراث النقلي وبين واقع الدراسات النقلية في جامعاتنا المعاصرة. ثم نخرج من ذلك إلى محاولة تقديم جملة من الأسئلة، لجعلها محاور تنبيه وتفكير حول كيفية إعادة النظر في سائر أركان

العملية التعليمية للمعارف النقلية.

لا يمكن الخروج من هذا المأزق بمحاولات تجريدية تقوم على أفكار المقاربة بين المنهجية المعرفية الإسلامية وبين المنهجية المعرفية الوضعية، فأمامنا سؤال محوري مفاده: هل القرآن الكريم مقيد فهمه وإدراك معانيه بشروط الوعي والفهم التاريخي العربي في عصر التدوين وبوسائله وآلياته فقط؟ وهل على جميع أجيال المسلمين أن تعيش استهلاك ذلك الفهم وحده ووسائله دون محاولة منها لأن تعيد القراءة والفهم؟ أم أن الخطاب القرآني موجه للناس كافة إلى يوم القيامة، ولكل جيل الحق في إعادة القراءة وإعادة الفهم والتماس عطاء القرآن الكريم المتجدد المحيط بأية متغيرات نوعية للزمان والمكان؟

فنحن إذاً بأمس الحاجة إلى جملة من المداخل التي لا بد من إدراكها وفهمها، بالنسبة لعصرنا هذا لتجاوز أزماتنا المعرفية والفكرية والثقافية، وأن هذه المداخل إنما هي مداخل قرآنية تستجدي وعيها في فهم القرآن الكريم من ملاحظة خصائصه وملاحظة المنهج النبوي في التعامل مع تلك الخصائص. ويمكن أن نلخص هذه المداخل كما يلي:

١- لا بد أن ندرك أن أزمة هذا النوع من ثقافتنا الموروثة هي أزمة منهجية، وليست أزمة في التفاصيل والجزئيات.

٢- إن المفترض في هذه المعارف أن تقوم على المنهج القرآني في الجمع بين القراءتين -قراءة الوحي وقراءة الكون- وهو المنهج الذي نزل به الروح الأمين أول ما نزل: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾[١].

٣- إن هذه «المنهجية المعرفية الدينية» مستوعبة لتراث النبوات كلها، وممتدة عبر التاريخ البشري باتجاه عالمية الهدى ودين الحق. فأية معارف تتعارض مع هذه العالمية الممتدة لا يمكن أن تندرج في إطار هذه المنهجية.

٤- إن «للمنهجية المعرفية الدينية» مقاصد شرعية، فأية معرفة لا تحقق هذه المقاصد أو تتغيّاها فإن هذه المنهجية ترفضها، فضلاً عن المعرفة التي قد تضرّ بها.

٥- إن القرآن المجيد قد استهدف إيجاد إنسان التغيير الرسالي المعدّ في إطار التلاوة والتزكية ومعرفة العلم والحكمة، الواعي بذاته وبمهمته، فأي معرفة لا تفيد في

إعداد هذا النموذج قد تندرج تحت العلم الذي لا ينفع، فإذا أضرت اندرجت تحت العلم الضار.

٦- إن القرآن المجيد قد استهدف بناء «أمة قطب» مخرجة للناس، قادرة على استقطابهم، مؤهلة للوقوف موقف الشهادة منهم.

٧- إنّ القرآن العظيم الذي يمثّل المرجع المطلق لهذه المعارف خطاب عالمي، يستوعب البشرية كلها، ويتجاوز سائر أنواع الخطاب الحصري، سواء أكان قومياً أو جغرافياً أو طائفياً أو لاهوتياً. فأية معارف لا تستوعب هذه الحقيقة لا يمكن أن يمثل القرآن العظيم مرجعيتها.

٨- إنّ الله تعالى قد أبدل البشرية عن الحاكمية الإلهية في بني إسرائيل حاكمية هذا القرآن المحفوظ إلى الأبد، يرجع الناس إليه فيجدون فيه القول الفصل.

٩- إنّ من أهم خصائص الشريعة التي جاء القرآن المجيد بها وطبقها رسول الله ﷺ التخفيف والرحمة ووضع الإصر والأغلال ورفع الحرج، ولا بد لهذه الخصائص أن تبرز بوضوح في سائر دراساتنا الشرعية.

١٠- إن من خصائص هذه الشريعة أيضاً أن منطلق التكليف فيها هو التشريف والهداية والتحرير للإنسان، خلافاً لمنطلق التكليف المحض في شرائع سابقة وهو التشديد: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيّبات أحلت لهم ...﴾[٢]، ولا بد من أن تعكس علومنا النقلية هذا بوضوح.

١١- إن القرآن الكريم هو المصدر الوحيد المنشئ للأحكام، وأن السنة النبوية هي المصدر الوحيد المبيّن لآياته على سبيل الإلزام. ولا بد أن تعكس علومنا النقلية هذه الحقيقة.

١٢- إن الفترة التي عاشها رسول الله ﷺ وكل ما صدر عنه فيها من قول أو فعل أو تقرير أو تصرف مهما كان نوعه هو جزء من منهجية كاملة لكيفية تنزيل قيم القرآن كلها على الواقع، وتمثل بمجموعها هداية لا بد أن تنعكس بوضوح في علومنا النقلية، ولا ينحصر ذلك في مجال الأحكام وحدها.

١٣- إنّ «ختم النبوة» بمحمد رسول الله ﷺ يجعل البديل عن تتابع النبوات في الأمم السابقة هو التجديد والاجتهاد الدائمان المستمران لاستيعاب الواقع المتغير

بقيم القرآن، ولا بد أن ينعكس هذا الأمر في علومنا النقلية ودراساتنا الشرعية، وأن يكون لمنهجية الاجتهاد والتجديد موقعهما في علومنا هذه، وأن تكون الدراسات المنهجية حجر الزاوية في هذه العلوم.

١٤- إن تراثنا النقلي قد تفاعل مع ثقافات كثيرة، وكان لذلك التفاعل جوانبه الإيجابية والسلبية، ولا بد من تقديم مناهج للتعامل مع التراث تعين على إبراز وتحديد ما هو إيجابي وما هو سلبي، وأن يدخل ذلك في إطار دراساتنا، وأن تكون مناهج عرض التراث على الكتاب والسنة ونقده انطلاقاً منهما جزءاً من عمليات التصحيح المطلوبة.

والجدير بالذكر أن هذه العناصر ذاتها كل منها يفضي إلى الآخر، وكل منها يحتاج إلى شرح وتوضيح.

أولاً: يجب إيضاح مدخل عالمية الإسلام وارتباطه الوثيق بعالمية الخطاب القرآني. ثم المداخل المنهاجية القرآنية لاستيعاب تراث النبوات والتي إذا وفقنا لفهمها ضمن إدراكنا لمنهجية القرآن المعرفية، فإن ذلك سيكون إن شاء الله بداية إعادة التشكيل لعقولنا وحجر الزاوية في بناء منهجيتنا، ونقطة الانطلاق نحو عالميتنا المرتقبة. إن عالمية الإسلام تبدأ من فهم خصائص الكتاب الكريم المتضمن لعالمية الخطاب، المستوعب والمتجاوز بذات الوقت لإشكاليات كافة الأنساق الحضارية والمناهج المعرفية والإدراكية لا في الماضي فقط، ولكن في الحاضر والمستقبل أيضاً، ولكافة البشرية إذا فهم على أنه المعادل للكون.

غير أننا لا ننتظر اكتمال هذا الجهد الضروري دفعة واحدة لنقول من هنا نبدأ، فخصائص العالمية ظاهرة في الكتاب الكريم وفي حركية التاريخ الإسلامي، وإن كانت لم تتحول إلى منهج بعد. وهي خصائص يشد بعضها بعضاً، وتدل كل خاصية على الأخرى، وذلك إذا رتبت ذهنياً ومعرفياً على النحو التالي، وإذا فهمت هذا الخصائص بوضوح فلا بد أن تفهم خصائص القرآن العظيم ذاتها، وأبرز هذه الخصائص وأهمها ما يلي: ١) ليكون الخطاب عالمياً كان لا بد من ختم النبوة وذلك لتوحيد المرجعية فلا تتعدد النبوات التالية، ويحدث النسخ والتعارض والاختلاف منها. ٢) ليكون الخطاب عالمياً، كان لا بد من تحرير القرآن من خصوصية بيئة النزول ولهذا أعيد ترتيب مواقع

آيات القرآن توقيفاً على يدي رسول الله ﷺ قبل التحاقه بالرفيق الأعلى. ٣) وليكون الخطاب القرآني عالمياً، كان لا بد أيضاً من نسخ الشرائع ذات الخصوصيات الحصرية لشعوب وقبائل محددة، وهي شرائع إصر وأغلال، لتستبدل بها شرائع القرآن التي تتفق مع حاجات المجتمعات العالمية كافة، بحيث تحمل قابلية الشمول والعموم، لتكون مشتركة وقابلة للتطبيق في كافة أرجاء العالم. وشرائع القرآن هي شرائع الحدود الدنيا القائمة على (التخفيف والرحمة) وضبط حركة الإنسان في دائرة الأمانة والاستخلاف والعمران والابتلاء. ٤) وليكون الخطاب عالمياً، كان لا بد من أن تتضمن النصوص اللغوية المحدودة معاني إطلاقية تكتشف عبر اكتشاف منهجية القرآن المعرفية ضمن بنائيته الموحدة.

حين ننطلق من هذه المسلمات العقيدية بوصفها (فرضيات) علمية موضوعية، تؤكد في ترابطها على عالمية الخطاب الإسلامي، سنكتشف أن قدراً منها هو من البدهيات التي بين أيدينا مثل ختم النبوة وشرعة التخفيف والرحمة وحاكمية الكتاب الكريم المطلق في معانيه للبشرية كلها وصيرورته مع الزمان والمكان. ولا بد أن تعكس معارفنا النقلية بوضوح هذه الخصائص والمزايا وتجعل منها مداخل منهاجية أساسية ظاهرة.

ثانياً: نحتاج إلى استحياء المداخل، وذلك بتجديد المعرفة بالمداخل المنهاجية للخطاب القرآني والخطاب النبوي، لتجديد وعينا بتراثنا وبناء معرفتنا المعاصرة وفقاً لها، وكانت أهم المداخل التي ندعو إلى استحيائها كما يلي:

١) أنه قد اشتمل على جملة من المداخل المنهاجية الهامة التي من خلالها صدق هذا الخطاب ما سبقه وهيمن عليه وعلى ما لحقه. وتضمنت هذه المداخل بشكل موسع ومكثف ومفصل معالجة نقدية لكل تراث النبيين، فاسترجع ذلك التراث واستخلصه من تحريفات المبطلين وتخيلات وأوهام المفسرين، وطهره من التزييف وأعاد تقديمه صادقاً من داخل مشكاة التوحيد، ونفى عنه كل ما لحقه من تأثير العقليات الوثنية والإحيائية والحلولية والتجسيدية، كما أوضح دلالة كل نبوة من تلك النبوات، والجوانب المميزة في كل منها. ولذلك، وصف رسول الله بأنه ﴿الذي جاء بالصدق وصدّق به﴾[٢]، وقال تعالى ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً

مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾[٤]. وأن مدخل التصديق قد وضح الفرق بين حقائق تراث النبوات والأباطيل التي أضيفت إليه، وكشف كذلك الإسقاطات البشرية الأيديولوجية على ذلك التراث، وهذا ما يجعله مصدر الذكر الصادق الموثوق للبشرية كلها.

٢) خاصية الهيمنة: فهو المهيمن على كل ما سواه ولا يهيمن عليه ما عداه، فهو مسترجع للماضي بهيمنة موجهّة إلى حاضر التنزيل في وقته، لكنه هيئ لاستيعاب المستقبل باطلاقيته وإعجازه وتصديقه وهيمنته. إن أية محاولة معرفية تتم في إطار غفلة عن هذه الخصائص القرآنية لا يمكن أن تؤدي إلى اختراق عالمية المعرفة الوضعية.

٣) إن القرآن العظيم يحمل في مبناه ومعناه «وحدة منهجية كاملة» لا تقتصر على ما ذكرنا، وعنصر هيمنته واستمراريتها لا يكمن في نصوصه وحدها ولكن في فهم هذه النصوص في ضوء «المنهج القرآني» ذاته، والمطلوب منا هو التفاعل الدائم العميق مع القرآن لنكتشف منهجيته كما نكتشف المنهج والسنن والقوانين في الحركة الكونية بحثاً عن النظام العام للظواهر الكونية. والبحث في منهجية القرآن ضمن سوره وآياته التي تبدو مجزأة (أجزاء) ومتعددة سوراً، ومتنوعة آيات، هو الذي سيمنحنا المنهجية المعرفية القرآنية المحيطة المهيمنة، وهذه المنهجية الجامعة بين القراءتين هي التي ستفتح لنا طريق التجديد والوسطية لنشق طريقنا نحو عالمية الإسلام المرتقبة وظهور الهدى ودين الحق.

٤) إنّ هذا القرآن كلام الله تعالى معجز متحدى به، ولو اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وأنه تبيان لكل شيء، وأن الله تعالى لم يفرط فيه من شيء، وأنه معادل للكون قابل لاستيعابه، وتقديم فهم له وتفسيره، وقابل لهداية الإنسان وتقديم كل ما تحتاجه مهمة الاستخلاف من علوم ومعارف.

٥) وإذا كان للكون سنن حاكمة وقوانين ضابطة، يمثل المنهج العلمي الضابط لها والكاشف عن علاقاتها وبدون ذلك لا يفهم الكون، فإن للقرآن العظيم سنناً تربط بين آياته وكلماته وسوره لا بد من فهمها تحليلاً وفي إطار بنائيته الكلية لا تجزئةً، وأن إنماء علم المناسبات والتناسب قد يساعد على الكشف، مع أدوات التحليل والفهم

الأخرى وفق اللغة ووفق الواقع، عن هذه المنهاجية.

٦) إنّ هذا القرآن بحكم كونه كلام الله هو نص مطلق لا يستوعبه زمان أو مكان بل هو متجاوز لذلك كله، وهو خارج عن دوائر ثنائيات القديم والجديد، والتراث والعصر وغيرها. فهو كلام الله المستوعب لحركة التاريخ، المتعالي على قدرات المخلوقين لا يحيط به فهم بشر ولا تحده تفسيراتهم، ولا تحصره أفهامهم، يتحدى عقولهم ويدفعها إلى تدبره، وإعمال قدراتها فيه، لكنه يعجزها بقدرته على استيعاب الإنسان وأطواره، والكون وصيرورته، والتاريخ ومراحله. وإنجازه وحفظه بلفظه ليبقى مرجع البشرية حتى يوم الدين، يغنيها عن أية مرجعية أخرى.

٧)إنّ إعادة تشكيل عقولنا وبناء ثقافتنا لا يمكن أن يتم بتأويلات وتفسيرات جزئية، وباتخاذ النصوص شواهد، بل بإدراك أن القرآن الثابت المعجز الذي لا يتغير يحمل في ثناياه ما يحيط بمختلف أشكال الوعي الإنساني لا بمفهوم باطني، وإنما بالمفهوم الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿ولتعلمنّ نبأه بعد حين﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[٦].

٨) إن هناك كثيراً من القضايا المتعلقة بالتراث التفسيري والتأويلي وعلوم القرآن قد اشتملت على إسقاطات لا تتناسب وإطلاقية القرآن العظيم. ومن المهم أن تنهض الهمم، لمراجعتها ودراستها وإخضاعها للنقد والتحليل، وتحرير الأفهام منها.

٩) إن هناك كثيراً من القضايا التي أدرجت في علوم القرآن في عصر التدوين، مثل قضايا التشابه والنسخ ونحوها تحتاج إلى إعادة دراسة وتمحيص، وذلك لتحرير الفهم الإسلامي للقرآن المجيد من آثارها.

١٠) إنّ هناك مشكلات كثيرة قد أثيرت حول السنة النبوية المطهرة قديماً وحديثاً، ولا يمكن أن تتم معالجة هذه الإشكاليات إلاّ باكتشاف المنهج الناظم الضابط لقضايا السنة كمنهج لتطبيق قيم القرآن في الواقع. والدراسات الحالية لا تستطيع إمدادنا بهذا المنهج الضابط، فلا بد أن تنهض الهمم لإجراء البحوث والدراسات المنهجية لمعالجة هذه الإشكالات.

١١) إنه من الواضح جداً أن تحول القرآن باتجاه العالمية ضمن واقع تاريخي اقتصادي واجتماعي وثقافي مغاير جذرياً لأوضاع العالمية الإسلامية الأولى يعني

بالدرجة الأولى إيجاد تفاعل بين القرآن وهذه المتغيرات. فما هو الأسلوب الذي يتبع في ضبط هذا التفاعل، بحيث لا تخضع النصوص لتأويل عصري مفتعل يقفز -مسايرة للعصر- إلى خارج القرآن؟ وكيف يمكن النظر إلى هذه المتغيرات الجذرية في الزمان والمكان من بعد انقطاع الوحي والرسالة؟

فالذين يتوجهون بالعصرنة إلى القرآن إنما يطبقون أفكارهم لا أفكار القرآن عن التفاعل مع التغيير. أما القرآن، فإنه يضع أمامنا أسساً ثابتة للتعامل معه في إطار متغيرات العصر والتاريخ. علماً بأن القرآن يتوجه اليوم إلى عالمية جديدة لكل البشر، ليظهره الله على الدين كله ضمن عالمية شاملة. إن من شروط أداء القرآن لهذه المهمة العالمية أن يأتي مستوعباً لمقوماتها في تكوّن إنسان العالم الجديد. من الأمثلة على ذلك أن كل مشتغل بالدعوة الإسلامية خارج الإطار الجغرافي التقليدي للإسلام سرعان ما تواجهه مشكلات تراثية، يلجأ معها إلى كل أنواع المبررات المنطقية، ليؤكد على صحتها أو سلامة منطلقها دفاعاً عن التراث أكثر من كونه دفاعاً عن القرآن. ولو كان المنهج القرآني، والمنهج النبوي في فهمه وتطبيقه سائدين في الوعي المعاصر، لما دعت الحاجة إلى كثير من الاعتذارات والتأويلات.

لقد كان لغياب المنهجية الواضحة في فهم القرآن وتفسيره ضرر بالغ في العقل المسلم، فهو لم يأخذ بتفسير الجزء من خلال الكل، والنظر في الآيات المقررة بردها إلى ناظم كلي عام، مما أثر في المواقف المتناقضة التي ظهرت ضمن مدارس الفكر الإسلامي. ولم تكن هذه المواقف فيما بينها فقط ولكن داخلها أيضاً، فالأشعري قد يتناقض مع الأشعري، والمعتزلي مع المعتزلي، مع وحدة المصدر القرآني الذي يستمدون منه. ولا يمكن أن يكون القرآن سبباً في هذا، بل سببه أنهم وقعوا في أسر الكثرة دون تبين الوحدة المنهجية في تكوينه العام. لذلك، جاءت أقوالهم وآراؤهم حول القدرة الإلهية والعجز البشري ومقام العقل، لتعكس غياب هذه الوحدة. بل إن هذه النقطة بالذات تحمل تمييزاً واضحاً بين القرآن في منهجه الواحد والفكر الإسلامي في متناقضاته، بحيث لا يصبح الثاني ترجمة موضوعية للأول.

من هذه النقطة، تتولد مسألة هامة جداً في نقدنا للفكر الإسلامي، فنتيجة لغياب الاتجاه نحو المنهجية والاعتماد على النص في جزئيته وكثرته، نجد أن جلّ

المفكرين الإسلاميين يأخذون ببدايات قرآنية، ثم يولدون من خلال مناقشاتهم العقلية والفلسفية رؤاهم للأمور، كأنما تقف كل آية في القرآن مستقلة عن كلية الكتاب والكينونة، لا لتنشئ فكراً وعلماً، بل لتكون شاهداً معضداً للفكر البشري القاصر.

فيجب الانتباه إلى الأخطاء الشائعة التي نجمت عن غياب هذه الخصائص عن الأذهان، وهذا الخطأ جعل من الإسلام قسيماً، لما عرف في حوارات الأديان «بالأديان الإبراهيمية». بل وقسيماً غير مكافئ، فقيل أن الأديان الإبراهيمية ثلاثة: أولها اليهودية، وثانيها النصرانية، وثالثها الإسلام. والذي أود تأكيده هنا، هو أن الإسلام ليس اسماً لدين بدأ برسالة محمد ﷺ، بل إنه اسم لدين الله كله الذي ينظر إلى إبراهيم على أنه مقدمة له، وإلى محمد ﷺ على أنه النبي الخاتم ليشكل الأنبياء والرسل أمة واحدة.

لذلك، فإن القرآن الكريم قد تجاوز كل ما بين محمد ﷺ وإبراهيم لينتسب إليه، فقال جل شأنه: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتّخذ الله إبراهيم خليلا﴾(٧). وقال جل شأنه: ﴿... هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدّين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرّسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾(٨).

وقد شدد القرآن الكريم على وجوب اتباع ملة إبراهيم، فقال ﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾(٩). وأكد على إمامة إبراهيم عليه السلام للأنبياء، فقال جل شأنه: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمّهن قال إنّي جاعلك للنّاس إماما قال ومن ذرّيّتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾(١٠).

ويؤكد القرآن العظيم الاتصال المباشر المتجاوز بين رسول الله ﷺ وأبيه إبراهيم الذي اعتبر بعثة محمد ﷺ نعمة ورحمة للعالمين، اقترنت بالاستجابة لدعاء إبراهيم: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم، إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (١١). وقال جل شأنه: ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن

كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[١١].

إن التأكيد على الأصل الإبراهيمي المتصل مباشرة برسالة محمد ﷺ يجعل الإسلام الذي جاءت به أمة الأنبياء واحداً تمثله وتجسده بشكله الكامل المتصل المتجاوز ملة إبراهيم التي مثّل القرآن العظيم وحده خصائصها وصفاتها، وهذا سوف ينسف كثيراً من المسلمات المتداولة في بعض معارفنا النقلية حول «شرع من قبلنا» وعلاقة النصرانية واليهودية بالإسلام، وبإبراهيم عليه السلام. فالقرآن الكريم ينفي أية صلة بين اليهودية والنصرانية وبين إبراهيم: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. إن أولى النّاس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهذا النّبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾[١٢]، وهذا يجعل رسالة محمد ﷺ دون مرور أو توقف عند اليهودية والنصرانية فهو ينفي صلة اليهودية أو النصرانية، بالإبراهيمية، وهذا يتجاوز الديانات التاريخية المحلية والإقليمية والقومية ليعزز الحنيفية الشاملة: ﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتّبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾[١٣].

فالإسلام دين العالمية وليس قسيماً لليهودية ولا النصرانية، فكلتا الديانتين ديناتان قوميتان، ارتبطتا ببني إسرائيل وحدهم، وقيدتا بهم وبزمانهم. أما العالمية، فهي خاصية الإسلام الذي يستطيع الاستجابة لخصائص أي واقع ضمن متغيرات الزمان والمكان. ولتأكيد هذه الخاصية في القرآن، قال الله تعالى: ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لّما بين يديه إنّ الله بعباده لخبير بصير﴾[١٥]. وهذه الآية تأكيد على مدخلي التصديق والهيمنة على الماضي، ثم تبعه قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾[١٦].

وختاماً، لا بد من التأكيد على أن الله قد جعل من القرآن بديلاً كافياً عن ابتعاث الأنبياء، وهادياً للبشرية، وإذا كان إعجاز القرآن في عصر التنزيل قد قام على المبنى اللفظي فإن المعنى المنهجي هو حجة القرآن المعاصرة على أهل الحضارات العلمية والمعرفة الوضعية. فالقرآن الكريم يحمل المنهج الكامل للبشرية الذي يجعله وحده